PISSN : 2571-9904 - EISSN : 2602-7763

إعادة بناء الفعل الاتصالي في عصر الذكاء الاصطناعي: نحو نموذج للفعل الاتصالي الهجين

Reconstructing Communicative Action in the Age of Artificial Intelligence: Toward a Hybrid Communicative Action Model

منية قوابسي.

معهد الصحافة و علوم الأخبار- منوبة – تونس

mounia.gouabsi@recherche.uma.tn

تاريخ الاستلام: 11/ 08/ 2026 تاريخ القبول: 23/ 09/ 2026 تاريخ النشر: 30/ 09/ 2026

ملخص:

ترصد الدراسة التحولات التي مست الفعل الاتصالي مع تنامي حضور الذكاء الاصطناعي في البيئة الرقمية، وما صاحبها من إعادة ترتيب لأدوار الفاعلين، وطرائق إنتاج الرسائل وتداولها. وتطرح في هذا الإطار، سؤال قدرة النماذج الاتصالية القائمة على استيعاب نمط من الاتصال تتداخل فيه المساهمة البشرية مع المعالجة الخوارزمية. واعتمدت مقاربة نظرية تحليلية لقراءة النماذج الاتصالية والأدبيات المرتبطة بالاتصال والذكاء الاصطناعي.

وتُفضي القراءة إلى، اقتراح نموذج للفعل الاتصالي الهجين يقوم على تفاعل: الفاعل البشري، والفاعل الخوارزمي، والرسالة الهجينة، والبيئة الرقمية، والتغذية الراجعة الذكية، ضمن توزيع متدرج للوكالة الاتصالية. ويتيح النموذج المقترح توسيع القدرة التفسيرية للنماذج القائمة، وقراءة الفعل الاتصالي من زاوية العلاقة المتغيرة بين القصد البشري والقدرة الخوارزمية.

الكلمات المفتاحية: الاتصال الرقمي؛ الذكاء الاصطناعي؛ الفاعل الخوارزمي؛ الفعل الاتصالي؛ الفعل الاتصالي الهجين؛ الوكالة الاتصالية.

Abstract:

This study examines how artificial intelligence is reshaping communicative action by altering actors' roles and the production of messages. It questions the capacity of existing communication models to explain communication in which human contribution intersects with algorithmic processing. A theoretical-analytical approach was adopted through a critical reading of relevant communication models and literature.

The study proposes a Hybrid Communicative Action Model based on the interaction of human and algorithmic actors, the hybrid message, digital environment, and intelligent feedback, within a differentiated distribution of communicative agency. The model expands the explanatory scope of existing approaches and highlights the changing relationship between human intentionality and algorithmic capability

Keywords: *Digital Communication; Artificial Intelligence; Algorithmic Actor; Communicative Action; Hybrid Communicative Action; Communicative Agency.*

I. مقدمة

لم يعد حضور الذكاء الاصطناعي في الفضاء الاتصالي مقتصرا على وظيفة تقنية مساندة، إذ امتد إلى مراحل متعددة من إنتاج الرسالة، وصياغتها، وتخصيصها، وتوجيهها، وأصبح في بعض السياقات، عنصرا مؤثرا في تشكيل مساراتها وأنماط تداولها داخل البيئة الرقمية.ومع هذا التحول، لم تعد الصورة التي افترضتها النماذج الاتصالية الكلاسيكية والقائمة أساسا على مركزية الفاعل البشري كافية وحدها لقراءة ما يحدث اليوم.

فالمسألة إذن، لا تتعلق بإضافة أداة تقنية جديدة إلى العملية الاتصالية، وإنما بتغيُّر في بعض العلاقات التي تقوم عليها هذه العملية، فالإنسان قد يضع المقصد ويحدد الغاية، بينما تتولى الخوارزمية اقتراح صياغة، أو تعديل محتوى أو ترتيب المعلومات، أو توجيه مسار وصولها إلى المتلقي. هنا يبرز سؤال يتجاوز حدود استخدام التكنولوجيا إلى سؤال الكيف: كيف يتغير الفعل الاتصالي عندما تصبح الخوارزمية جزءا من إنتاجه؟

من هذا السؤال تنطلق الدراسة، لإعادة النظر في مفهوم الفعل الاتصالي ليس بهدف إقصاء النماذج السابقة وإنما لاختبار قدرتها على تفسير اتصال تتداخل فيه المساهمة البشرية مع المعالجة الخوارزمية، وعليه تتمحور الإشكالية حول السؤال الآتي:

كيف يمكن إعادة بناء الفعل الاتصالي في عصر الذكاء الاصطناعي؟ وهل يتيح مفهوم "الفعل الاتصالي الهجين" تفسيرا أكثر ملاءمة للتحولات التي تشهدها العملية الاتصالية المعاصرة؟

تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن: التحولات التي أحدثها الذكاء الاصطناعي تستدعي إعادة بناء الفعل الاتصالي من خلال نموذج يستوعب التداخل بين الوظائف البشرية والخوارزمية وهو ما تحاول الدراسة بلورته في مفهوم الفعل الاتصالي الهجين.

ولمعالجة هذه الإشكالية، تم اعتماد المقاربة النظرية التحليلية من خلال قراءة نقدية للنماذج الاتصالية والأدبيات ذات الصلة بالاتصال والذكاء الاصطناعي، ثم تركيب عناصرها في تصور مفاهيمي يقود إلى اقتراح نموذج للفعل الاتصالي الهجين.

وتفرع عن الإشكالية ثلاثة أسئلة:

- ما التحولات التي أحدثها الذكاء الاصطناعي في بنية الفعل الاتصالي، وما حدود النماذج الاتصالية التقليدية في تفسيرها؟
- كيف أعاد الذكاء الاصطناعي توزيع الأدوار بين الفاعلين داخل البيئة الرقمية؟
- ما الأسس النظرية والأبعاد المفاهيمية التي يمكن أن يقوم عليها نموذج الفعل الاتصالي الهجين؟

وتتجلى أهمية الدراسة، كونها لا تتعامل مع الذكاء الاصطناعي باعتباره مجرد أداة جديدة في الممارسة الاتصالية وإنما تنظر إليه من زاوية تأثيره في بنية الفعل الاتصالي ذاته، فحين تتدخل الخوارزمية في إنتاج الرسالة أو تعديلها أو توجيهها يصبح من المشروع إعادة مساءلة الحدود التي اعتادت النماذج الاتصالية رسمها بين المرسل والرسالة والمتلقي.

وعليه، تتجه الدراسة إلى تحقيق ثلاثة أهداف مترابطة: أولها الكشف عن التحولات التي مست بنية الفعل الاتصالي مع تنامي حضور الذكاء الاصطناعي، وثانيها مساءلة قدرة النماذج الاتصالية القائمة على استيعاب هذه التحولات، أما ثالثها متعلق ببناء تصور مفاهيمي للفعل الاتصالي الهجين من خلال تحديد مكوناته والعلاقات التي تنتظم بينها داخل البيئة الرقمية.

وبهذا لا مناص من القول إن، الدراسة لا تقترح قطيعة مع النماذج الاتصالية السابقة، وإنما تسعى إلى توسيع مجال النظر إليها انطلاقا من واقع اتصالي لم يعد فيه إنتاج الرسالة وتداولها فعلا بشريا خالصا، ولا عملية تقنية محضة، بل مجالا تتقاطع فيها القصدية البشرية مع القدرة الخوارزمية.

أولا: من الاتصال الخطي إلى الاتصال التفاعلي: تحولات في بنية الفعل الاتصالي

نشأ التفكير الاتصالي الحديث من محاولة فهم عناصر العملية الاتصالية والعلاقات التي تربط بينها ولهذا اتخذت النماذج الأولى طابعا تبسيطيا، إذ سعت إلى تمثيل الاتصال في صورة عناصر ومسارات يمكن تحديدها وتحليلها.

يظهر ذلك بوضوح في النموذج الرياضي الذي قدمه شانون وويفر(Shannon & Weaver)، حيث عولج الاتصال باعتباره عملية لنقل المعلومات من مصدر إلى متلقى عبر قناة، مع الانتباه إلى العوامل التي قد تعيق سلامة انتقال الإشارة وفي مقدمتها الضوضاء. وقد وفر هذا النموذج أساسا مهما لتحليل الاتصال غير أن بنيته الخطية جعلت الاهتمام منصبا أساسا على انتقال الرسالة أكثر من التفاعل والتأويل والسياق (Shannon & Weaver, 1949).

ومع تطور البحث في الاتصال، تغير السؤال نفسه، فلم يعد الاهتمام مقتصرا على معرفة كيف تنتقل الرسالة؟ بل اتجه إلى البحث في كيف يتشكل معناها داخل العملية الاتصالية؟ ويتضح ذلك في تصور شرام(Schramm) الذي أعطى التفاعل بين أطراف العملية أهمية أكبر، وربط إمكان بناء المعنى بالمجال المشترك للخبرة بين المرسل والمتلقي (Schramm, 1954) .

وفي ذات السياق، وسّع نيوكومب(Newcomb) النظر إلى الاتصال من خلال ربطه بالبنية الاجتماعية والعلاقات التي تجمع أطرافه، في المقابل قدم جاكوبسون(Jakobson) تصورا أكثر تركيبا لعناصر العملية الاتصالية محددا: المرسل، والمتلقي، والرسالة، والسياق، والاتصال، والشفرة، وربط بينها وبين وظائف لغوية مختلفة (Newcomb, 1953; Jakobson, 1960) .

ومن هنا، بدأ الاتصال يُفهم بوصفه شبكة من العلاقات تتداخل فيها عناصر لغوية واجتماعية وسياقية، وليس مجرد مسار يصل بين نقطة للإرسال وأخرى للاستقبال.

1. تحولات الفعل الاتصالي: من خطية نقل الرسالة إلى تفاعلية بناء المعنى

تكشف هذه التحولات أن النماذج الاتصالية لم تكن مجرد تمثيلات تقنية فقد عكست في كل مرحلة تصورا معينا لطبيعة الاتصال وللأدوار التي يؤديها أطرافه. ففي النموذج الخطي يحتل المصدر والرسالة والقناة موقعا مركزيا، بينما يكتسب المتلقي حضورا أكثر فاعلية في النماذج التفاعلية، ويصبح إنتاج المعنى مرتبطا بالسياق وبالعلاقة بين الأطراف، ما يسمح ذلك بقراءة تطور النماذج الاتصالية باعتبارها انتقالا من تصور يركز على نقل الرسالة إلى تصور يهتم بالتفاعل وبناء المعنى.

لكن من ناحية أخرى، أعادت البيئة الرقمية السؤال إلى الواجهة، مع تغير الشروط التي تتحرك فيها الرسائل، وأضحت الشبكات والمنصات والبيانات وآليات التخصيص جزءا من العملية الاتصالية نفسها. في هذا الصدد يشير مانوفِتش(Manovich) إلى أن الوسائط الجديدة تقوم على التمثيل الرقمي والبرمجة ما يجعل المحتوى قابلا للمعالجة وإعادة التشكيل بطرائق تختلف عن منطق الوسائط التقليدية لذلك لا تستقر الرسالة الرقمية بالضرورة في صورتها الأولى، وإنما يمكن أن تدخل في دورة متواصلة من التعديل وإعادة التوزيع وإعادة الاستخدام (Manovich, 2001).

ولا يفوتنا التنويه هنا أنه، قد اتضح جانب آخر من هذا التحول في مفهوم التقارب الإعلامي لدى جينكنز(Jenkins)، حيث يتدفق المحتوى عبر منصات متعددة، وتتغير العلاقة بين منتجيه ومستهلكيه. وحسبه إن التقارب لا يعني مجرد اجتماع تقنيات مختلفة في وسيط واحد بل يعيد تنظيم العلاقة بين الصناعات الإعلامية والجمهور والمحتوى، ومن ثم أصبح المتلقي أكثر حضورا في تداول المحتوى وإعادة إنتاجه والانتقال به بين المنصات (Jenkins, 2006).

وبطبيعة الحال، لا يعني التحول من الاتصال الخطي إلى الاتصال التفاعلي والشبكي أن النماذج السابقة فقدت قيمتها، على العكس من ذلك ما تزال عناصر العملية الاتصالية حاضرة فقط العلاقات بينها أصبحت أكثر تعقيدا وأضيفت إليها مستويات أخرى من الوساطة، والتنظيم، والتوجيه، لذلك لا تتمثل المسألة في استبدال نموذج بآخر وإنما في معرفة ما إذا كانت هذه النماذج قادرة على استيعاب بيئة اتصالية تغيرت شروطها.

خلاصة القول، أن العناصر المكونة للعملية الاتصالية لم تختفِ بقدر ما تغيرت طريقة انتظام عناصرها وتوزيع الأدوار بينها. فالفاعل الاتصالي لم يعد يتحرك داخل مسار محدد سلفا، والمتلقي لم يعد مجرد نقطة نهائية، كما لم تعد الرسالة منفصلة عن شروط انتاجها وتداولها. وأصبح الاتصال أكثر انفتاحا على التفاعل، والتعديل، وإعادة التوزيع، الأمر الذي يستدعي اختبار قدرة النماذج الاتصالية القائمة على استيعاب هذه التحولات، ولا سيما مع دخول الذكاء الاصطناعي إلى مراحل مختلفة من العملية الاتصالية. ومن هنا يبرز سؤال أكثر تحديدا يتعلق بطبيعة الفاعل الاتصالي وحدود دوره في إنتاج الرسالة وتوجيهها وتداولها، عندما تصبح الخوارزمية جزءا من هذا الفعل.

ثانيا: بين الوساطة التقنية والوكالة الخوارزمية: أين يتحدد دور الفاعل الاتصالي؟

يتخذ موقع التكنولوجيا داخل العملية الاتصالية أبعادا جديدة مع تطور الذكاء الاصطناعي، إذ أصبحت تُسهم في صياغة الرسالة وتعديلها وتخصيصها، وقد تشارك أحيانا في إنتاجها بدرجات متفاوتة من الاستقلالية. ويظهر هذا التحول في مفهوم الاتصال المتوسَّط بالذكاء الاصطناعي (Mediated-AI Communication)، الذي يشير إلى الحالات التي يتولى فيها وكيل حاسوبي تعديل الرسائل، أو تعزيزها، أو توليدها، لتحقيق غايات اتصالية محددة.(Hancock et al., 2020)

وتتضح طبيعة هذا التدخل من خلال مجموعة من الأبعاد التي حددها هانكوك(Hancock) وزملاؤه تشمل درجة تأثير النظام في مضمون الرسالة، والوسيط الذي يتدخل من خلاله، والغاية الاتصالية التي يسعى إلى تحسينها، ومستوى الاستقلالية الممنوحة له، وموقعه في علاقته بالمرسل والمتلقي (Hancock et al.,2020)، وتسمح هذه الأبعاد بفهم اتساع الدور الذي يمكن أن تؤديه الأنظمة الخوارزمية في الفعل الاتصالي من الإسهام في بناء الرسالة إلى التأثير في مسار التفاعل.

وتكتسب هذه الدلالات أهمية أكبر إذا نظرنا إلى الفعل الاتصالي بوصفه سلسلة من القرارات المتصلة تبدأ باختيار مضمون الرسالة وصياغتها، وتمتد إلى تحديد توقيتها وطريقة تقديمها للمتلقي، حتى أنه في بعض السياقات نجد أن الأنظمة الذكية تستطيع تحليل معطيات تتصل بالمستخدم والسياق الاتصالي، ثم تعمل على تقديم اقتراحات أو تعديلات تستجيب للهدف الاتصالي، وهو ما يفتح المجال لإعادة النظر في موقع الفاعل الخوارزمي داخل هذه العملية.

1. تحول موقع التكنولوجيا في بناء الرسالة الاتصالية

استنادا إلى ما سبق، يبرز مفهوم الذكاء الاصطناعي الاتصالي(AI Communicative) بوصفه مدخلا لفهم التحول في موقع الذكاء الاصطناعي داخل العملية الاتصالية، لينقل النقاش من سؤال الاستخدام إلى

سؤال الدور والتأثير. وفي هذا الاطار، أشار غوزمان ولويس(Guzman & Lewis) إلى أن التفاعل مع الوكلاء الافتراضيين والروبوتات الاجتماعية، وبرمجيات توليد اللغة، لا ينسجم بسهولة مع النماذج التي انطلقت من الاتصال بين البشر، وهو ما يستدعي إعادة التفكير في العلاقة بين الاتصال والآلة (Guzman & Lewis, 2020)

والجدير بالذكر أن، المسألة لا تتوقف عند دخول الأنظمة الذكية إلى العملية الاتصالية، وإنما تمتد إلى الوكالة الاتصالية ذاتها. ففي الاتصال التقليدي ترتبط الوكالة بالفاعل البشري الذي يحدد مضمون الرسالة وأسلوب صياغتها، ولمن يوجهه، بينما قد تتوزع هذه القرارات عند تدخل أنظمة الذكاء الاصطناعي بين الإنسان والنظام الذكي.

هذا الطرح يتوافق مع ما أشار إليه غوزمان ولويس(Guzman & Lewis) بشأن تنامي الوكالة التي تمارسها الأنظمة الذكية داخل العملية الاتصالية، ما يثير التساؤلات حول العلاقة بين الوكالة البشرية والأنظمة الخوارزمية (Guzman & Lewis, 2020) .

والثابت أن، الحديث عن الوكالة الخوارزمية لا يعني مساوة الإنسان بالآلة في القصد أو الوعي، و انما هو قدرتها على إحداث أثر فعلي في مسار الفعل الاتصالي من خلال الاقتراح والتعديل والترشيح والتوليد، بحيث تظهر هذه القدرة في مراحل متعددة من العملية الاتصالية: قبل إنتاج الرسالة من خلال تحليل الجمهور واقتراح الصياغة، وداخل الرسالة عبر تعديل النص أو الصوت أو الصورة، وبعد إنتاجها من خلال التأثير في مسارات توزيعها وترتيب ظهورها.

في ذات السياق، ترى إسبوزيتو(Esposito) أن الخوارزميات أصبحت جزءا من الحياة المجتمعية بوصفها أدوات لإنجاز المهام، وشركاء في عمليات الاتصال، وأنها ذاتية التعلم، تستطيع الاستفادة من مساهمات المستخدمين وإدخالها في دوائر تداول المعلومات، وهو ما يدعوا إلى إعادة التفكير في مفهوم الاتصال نفسه (Esposito, 2017)

وعليه، لا يستوجب الحديث عن هذا الأثر افتراض أن الخوارزمية "تفكر" بالطريقة التي يفكر بها الإنسان، إذ يكفي أن تعالج البيانات، وتنتج مخرجات تدخل في مسار تداول المعلومات، وتؤثر في احتمالات التفاعل. وتظهر هذه النقطة بوضوح في الاتصال المتوسَّط بالذكاء الاصطناعي، حيث يمكن للإنسان أن يحتفظ بالقرار النهائي كأن يختار إحدى الرسائل المقترحة أو يعدلها، بينما يمكن في حالات أخرى أن يتولى النظام الذكي مهاما اتصالية بدرجة أعلى من الاستقلالية (Hancock et al., 2020).

وتأسيسا على ذلك، تتضح طبيعة العلاقة الجديدة: الإنسان لا يغيب عن العملية الاتصالية، والآلة لا تحل محله بصورة مطلقة وإنما تتوزع بعض وظائف الفعل الاتصالي بينهما بحسب مستوى التدخل والاستقلالية.

وبطبيعة الحال، يمس هذا التوزيع مفهوم الرسالة نفسه، فالرسالة التي يصوغها الإنسان مباشرة تختلف عن تلك التي تتشكل عبر اقتراح خوارزمي، أو تعديل آلي، أو توليد مشترك، لأن مصدرها النهائي قائم على مستويات متداخلة، وقد أظهرت الأدبيات المرتبطة بالاتصال المتوسَّط بالذكاء الاصطناعي أن إدخال هذه الطبقة في إنتاج الرسالة يتيح إمكانات للتشارك والتكيف، بحيث تستطيع الأنظمة الذكية التأثير في مضمون الرسالة وأسلوبها وفق خصائص السياق والمتلقي (Hancock et al., 2020)، وبذلك تصبح الرسالة نتيجة لمسار تفاعلي لا تكفي ثنائية المرسل والمتلقي وحدها لفهمه.

غير أن، الاعتراف بهذا الدور لا يعني التعامل مع الذكاء الاصطناعي بوصفه فاعلا بشريا مكتمل الخصائص لأن الأنظمة الذكية لا تمتلك بالضرورة قصدية بشرية، أو وعيا ذاتيا بالمعنى الفلسفي، كما أن مخرجاتها تتشكل داخل بنى تقنية وبيانات وأهداف تصميمية يضعها البشر والمؤسسات، لذلك يستخدم هذا المقال مفهوم "الفاعل الخوارزمي" للدلالة على موقع وظيفي تؤثر من خلاله الخوارزميات في إنتاج الرسالة

وتوجيهها وتداولها، لا لإسناد صفات إنسانية إلى الآلة. ويسمح هذا التمييز بتجاوز ثنائية "الآلة أداة/الآلة إنسان"، فالخوارزمية لم تعد في بعض السياقات مجرد قناة محايدة لكونها تدخل في بعض وظائف الاتصال وتؤثر في مخرجاته، بينما تظل الغايات والسياقات وحدود الاستخدام مرتبطة بقرارات بشرية ومؤسسية.

استخلاصا لما سبق، لا يتوقف التحول الذي أحدثه الذكاء الاصطناعي عند تسريع الاتصال أو رفع كفاءته وإنما يمتد إلى إعادة توزيع بعض وظائفه وأدواره بين الإنسان والنظام الذكي، وفي بعض السياقات أصبح من الصعب رسم حدود حادة بين من ينتج الرسالة، ومن يقترحها، ومن يعدلها، ومن يوجه مسار وصولها. ومن هنا يتحول السؤال النظري من: من يرسل؟ إلى سؤال أكثر دقة: كيف تتوزع عملية إنتاج الفعل الاتصالي بين فاعلين بشريين وخوارزميين؟

وانطلاقا من هذا السؤال، يتجه النقاش نحو مفهوم يصف هذا النمط الجديد دون اختزاله في مجرد "اتصال بين الإنسان والآلة" أو في استخدام التكنولوجيا بوصفها وسيطًا. فالمسألة تتعلق ببنية تتداخل فيها أدوار الإنسان، والخوارزمية، والرسالة، والبيئة الرقمية، والتغذية الراجعة. ومن هنا يقترح المحور الثالث "نموذج الفعل الاتصالي الهجين" بوصفه محاولة لتجميع هذه العناصر ضمن إطار تفسيري واحد.

ثالثا: نحو فعل اتصالي هجين: من ثنائية الفاعل إلى تعدد الوكالة الاتصالية

إذا كانت التحولات الرقمية قد وسّعت مجال الفعل الاتصالي وأعادت ترتيب العلاقات بين عناصره، فإن الذكاء الاصطناعي يضع أمام النظرية الاتصالية مسألة أكثر عمقًا ترتبط بمصدر الفعل ذاته: أين يبدأ الفعل الاتصالي، وأين ينتهي؟ ومن أين تتحقق قدرته على التأثير عندما تتداخل في تشكيله إرادة بشرية ومعالجة خوارزمية؟ إذن، فالمسألة هنا لا تتعلق بإضافة تقنية جديدة إلى العملية الاتصالية، وإنما بإعادة النظر في الكيفية التي يتشكل بها الفعل عندما تتوزع بعض وظائفه بين مستويات مختلفة من الفاعلية.

في هذا السياق حري بنا التطرق إلى، أدبيات الاتصال المتوسَّط بالذكاء الاصطناعي التي بينت أن تدخل الأنظمة الذكية في العملية الاتصالية يتخذ صورا متعددة، تمتد من التصحيح والاقتراح إلى التعديل والتوليد، تبعا لدرجة استقلالية النظام وموقعه في العملية الاتصالية(Hancock et al., 2020) . ومن ثم، لا تبدو الوكالة الاتصالية مفهومًا يستقر بالضرورة عند طرف واحد، وإنما تتشكل بدرجات متفاوتة وفق طبيعة المهمة ومستوى التدخل الخوارزمي.

1. الفعل الاتصالي الهجين: تأسيس مفاهيمي

يقوم التصور المقترح على النظر إلى الفعل الاتصالي باعتباره بنية متحركة تتفاعل داخلها الغاية والرسالة والفاعل، والبيئة، والتغذية الراجعة. ومن الضروري التذكير هنا بما اشرنا اليه سابقا أن، الغاية الاتصالية تظل مرتبطة بالمقصد البشري، بينما يمكن للنظام الخوارزمي أن يشارك في بعض مراحل التشكيل والتنفيذ وفق ما تتيحه بنيته التقنية ومستوى الاستقلالية الممنوح له.

وقد حدد هانكوك(Hancock) وزملاؤه أبعادا لفهم هذا التدخل من بينها: حجم التعديل الذي يحدثه النظام في الرسالة، والوسيط الذي يعمل من خلاله، والهدف الذي يسعى إلى تحسينه، ودرجة استقلاليته وموقعه بالنسبة إلى المرسل والمتلقي(Hancock et al., 2020) .

ومن هذا المنطلق فإن، الهجنة لا تُفهم هنا بوصفها مجرد اجتماع الإنسان والنظام الخوارزمي في فعل واحد، وإنما بوصفها تشابكا وظيفيا بين مستويات مختلفة من الفعل، فقد يظل الإنسان صاحب القرار في اختيار المقترح أو تعديله، وقد يمتد تدخل النظام إلى مهام أكثر اتساعا كلما ارتفعت درجة الاستقلالية وفي الحالتين لا تختفي الوكالة البشرية، وإنما تتخذ شكلا أكثر تركيبا قوامه الاختيار والتوجيه والمراجعة والتفويض (Hancock et al., 2020).

وتكتسب هذه الفكرة بعدها النظري من، أدبيات الاتصال بين الإنسان والآلة إذ يرى غوزمان ولويس(Guzman & Lewis) أن الذكاء الاصطناعي يستدعي إعادة التفكير في موقع الآلة داخل النظرية الاتصالية، بالنظر إلى الأدوار الاتصالية التي أصبحت الأنظمة الذكية تؤديها، وما تثيره من أسئلة حول الوكالة والعلاقة بين الإنسان والآلة، وحدود مفهوم الاتصال نفسه (Guzman & Lewis, 2020)

ومن المفيد أن نعيد التأكيد هنا على أن، الوكالة الخوارزمية لا تستلزم افتراض قصدية أو وعي مماثل للإنسان لأنها تعمل ضمن بنية تقنية صممها البشر، وتستند في ذات الوقت إلى بيانات وأهداف محددة، أما عن مخرجاتها قد تدخل فعليا في مسار الاتصال وتؤثر في الرسالة وتداول المعلومات. وهذا الطرح يتوافق مع ما قدمته إسبوزيتو(Esposito) حين تبيّن أن الخوارزميات تستطيع المشاركة في دوائر الاتصال وإنتاج مخرجات تؤثر في تداول المعلومات دون أن تكون بحاجة إلى التفكير أو الفهم بالطريقة البشرية(Esposito, 2017) .

ولذلك يجب الأخذ بالحسبان من هذا المنظور أنه، يُقصد "بالفعل الاتصالي الهجين" إجرائيا في هذه الدراسة أنه: عملية اتصالية ديناميكية، تتداخل فيها وظائف الفاعل البشري والفاعل الخوارزمي لإنتاج الرسالة، وتشكيلها، وتوجيهها، ضمن بيئة رقمية تظل فيها الغاية والمسؤولية الاتصالية بيد الانسان. ويشكل هذا التعريف الأساس الذي يستند إليه النموذج المقترح باعتباره إطارا مفاهيميا قابلا للتطوير والاختبار، لا بديلا نهائيا عن النماذج الاتصالية السابقة.

2. نموذج مقترح للفعل الاتصالي الهجين: بناء تفسيري جديد

تكمن أهمية النموذج المقترح في إعادة تنظيم العلاقات بين عناصر العملية الاتصالية الرقمية ضمن تصور يسمح بقراءة الفعل الاتصالي بوصفه سيرورة مترابطة، خاصة وان هذه العناصر تبدو منفصلة في النماذج التقليدية، ما يحقق لها علاقات أكثر تداخلا في السياق الرقمي، إذ تتصل الغاية بالرسالة، وترتبط الرسالة ببيئتها، وتعود نتائج التفاعل لتؤثر في المسارات اللاحقة للفعل.

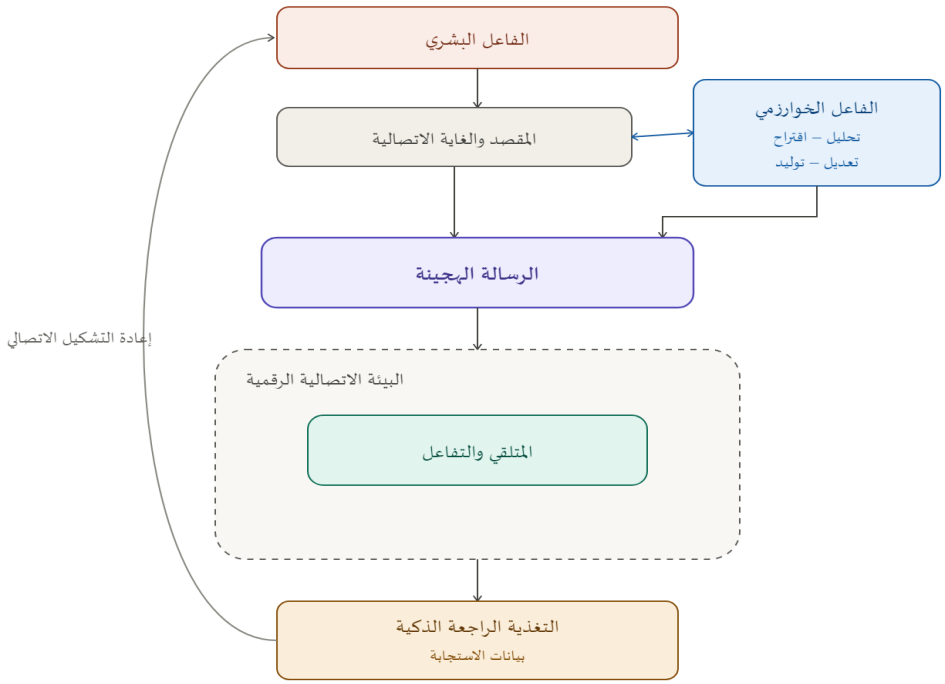
وعلى هذا الأساس، يقوم النموذج على ستة مكونات مترابطة: الفاعل البشري، والفاعل الخوارزمي والرسالة الهجينة، والبيئة الاتصالية الرقمية، والتغذية الراجعة الذكية، وتوزيع الوكالة الاتصالية. ولا تُفهم هذه المكونات بوصفها حلقات متتابعة وإنما باعتبارها مستويات متفاعلة داخل سيرورة واحدة، تتغير فيها طبيعة العلاقة بينها بحسب السياق ومستوى التدخل الخوارزمي.

ويكتسب النموذج خصوصيته من طبيعة الروابط التي يقيمها بين هذه المكونات، فالفاعل البشري يحدد الغاية ويمنح الفعل اتجاهه، بينما تمثل المخرجات الخوارزمية إحدى آليات إنجاز هذا الفعل، وتتشكل الرسالة في ضوء التفاعل بينهما، أما عن البيئة الرقمية فتوفر شروط التداول، في حين تسمح التغذية الراجعة الذكية بإعادة إدخال نتائج التفاعل في المسار الاتصالي، بما يجعل العملية قابلة للمراجعة والتعديل المستمر.

وبالتالي، لا يقترح النموذج مسارا خطيا يبدأ من مرسل وينتهي عند متلقٍ، وإنما بنية دائرية مفتوحة تتفاعل داخلها الغاية والرسالة والبيئة والاستجابة. وتكمن أهمية هذا التصور في أنه يتيح الانتقال من دراسة عناصر الاتصال كل على حدة إلى دراسة العلاقات التي تنتظم بينها وكيف ينتج عنها الفعل الاتصالي في صورته الجديدة.

وبناءً على ذلك، تقترح الدراسة نموذج الفعل الاتصالي الهجين (Hybrid Communicative Action Model – HCAM) بوصفه إطارا تفسيريا أوليا قابلا للتطوير والاختبار، لا باعتباره نموذجا نهائيا أو بديلا عن النماذج الاتصالية القائمة، وإنما باعتباره محاولة لإعادة ترتيبها في ضوء التحولات التي أفرزتها البيئة الاتصالية الذكية.

الشكل 1: نموذج مقترح للفعل الاتصالي الهجين(HCAM)



المصدر: اعداد الباحثة اعتمادا على قراءات المفهوم التأسيسي للفعل الاتصالي الهجين

نافلة القول يتضح مما سبق أن، الفعل الاتصالي الهجين لا يحيل إلى مجرد اجتماع الإنسان والخوارزمية داخل بيئة رقمية، وإنما إلى تشكل اتصالي تتداخل فيه وظائف الفعل وتتوزع الوكالة بين مستويات بشرية وخوارزمية متفاوتة التأثير. وانطلاقًا من هذا التصور، اقترحت الدراسة نموذجًا تفسيريًا يربط بين الفاعل البشري، والفاعل الخوارزمي، والرسالة الهجينة، والبيئة الرقمية، والتغذية الراجعة الذكية، وتوزيع الوكالة الاتصالية. ولا يقدم النموذج قطيعة مع النماذج السابقة، بقدر ما يوسع مجالها التفسيري لقراءة واقع اتصالي تتزايد فيه درجة التداخل بين المقصد البشري والمعالجة الخوارزمية، بما يفتح المجال أمام اختبار هذا البناء وتطويره في سياقات إعلامية واتصالية مختلفة.

II. خاتمة:

أفضت هذه الدراسة إلى أن، التحولات التي عرفها الاتصال الرقمي لم تقتصر على تغيير وسائطه وأدواته بل امتدت إلى بنية الفعل الاتصالي ذاته، فأعادت ترتيب العلاقات بين الفاعل والرسالة والمتلقي والبيئة التي يتشكل فيها المعنى، ومع دخول الذكاء الاصطناعي إلى مراحل مختلفة من إنتاج الرسالة وتشكيلها وتوجيهها، أصبح هذا التحول أكثر عمقا إذ لم تعد الوكالة الاتصالية تنحصر بالضرورة في فعل بشري منفرد وإنما باتت بعض وظائفها تتوزع بين الإنسان والأنظمة الخوارزمية.

وانطلاقًا من هذه الرؤى، سعت الدراسة إلى تجاوز النظر إلى الذكاء الاصطناعي بوصفه مجرد أداة أو وسيط تقني، واقترحت مفهوم "الفعل الاتصالي الهجين" بوصفه مدخلا لفهم سيرورة تتداخل فيها القصدية البشرية مع المعالجة الخوارزمية، ضمن بيئة رقمية تتسم بالتفاعل والتكيف والتغذية الراجعة. وقد تُوِّج هذا

المسار باقتراح نموذج الفعل الاتصالي الهجين (HCAM) كبناء تفسيري أولي يسعى إلى توسيع قدرة النظرية الاتصالية على قراءة التحولات التي تفرضها الأنظمة الذكية.

وللتوضيح، فإن هذه الدراسة لا تؤكد أن النموذج المقترح يمثل صيغة نهائية للفعل الاتصالي المعاصر كما لا تقترح قطيعة مع النماذج الاتصالية السابقة، فقيمته تكمن في فتح مجال نظري جديد للمساءلة والاختبار انطلاقًا من واقع اتصالي أصبحت فيه الحدود بين الإنتاج البشري والمعالجة الخوارزمية أكثر تركيبا.

ولعل السؤال الذي تتركه الدراسة مفتوحا لا يتعلق فقط بمن ينتج الرسالة، وإنما بكيفية تشكل الفعل الاتصالي ذاته عندما تتوزع بعض وظائفه بين الإنسان والخوارزمية. ومن هنا، فإن مستقبل البحث في الاتصال لا يبدو مرهونا بفهم ما تستطيع الخوارزميات أن تفعله فحسب، بل بفهم الكيفية التي يعيد بها هذا التداخل تشكيل مفاهيم الفاعل، والوكالة، والرسالة، والمعنى، والمسؤولية الاتصالية.

استنادًا إلى النتائج النظرية التي خلصت إليها الدراسة، يمكن اقتراح ما يأتي:

1. **توسيع البحث النظري في الفعل الاتصالي** بما يستوعب التحولات التي أحدثتها الأنظمة الذكية في أدوار الفاعلين وآليات إنتاج الرسائل وتداولها
2. **اختبار نموذج الفعل الاتصالي الهجين ميدانيًا** في سياقات إعلامية واتصالية مختلفة، للتحقق من قدرته التفسيرية وتحديد حدود صلاحيته
3. **اعتماد توزيع الوكالة الاتصالية** مدخلًا لتحليل العلاقة بين الفاعل البشري والفاعل الخوارزمي بدل اختزالها في ثنائية الإنسان/الآلة
4. **تطوير أدوات تحليلية لرصد مستويات التدخل الخوارزمي** في إنتاج الرسائل، والتمييز بين الاستخدام المساعد للذكاء الاصطناعي والمشاركة الخوارزمية الفعلية في الفعل الاتصالي
5. **إدماج البعد الأخلاقي والمسؤولياتي** في دراسة الاتصال المدعوم بالذكاء الاصطناعي، خصوصا ما تعلق بمصدر الرسالة والشفافية والمساءلة وحدود التفويض الخوارزمي .
6. **تشجيع الدراسات التطبيقية المقارنة** التي تختبر النموذج في الصحافة الرقمية والاتصال المؤسساتي والعلاقات العامة والإعلام الاجتماعي، بما يسمح بتطوير النموذج أو إعادة ضبط أبعاده في ضوء نتائج الاختبار الميداني

الإحالات والمراجع:

- Esposito, E. (2017). Artificial communication? The production of contingency by algorithms. *Zeitschrift für Soziologie, 46*(4), 249–265.
- Guzman, A. L., & Lewis, S. C. (2020). Artificial intelligence and communication: A human–machine communication research agenda. *New Media & Society, 22*(1), 70–86.
- Hancock, J. T., Naaman, M., & Levy, K. (2020). AI-mediated communication: Definition, research agenda, and ethical considerations. *Journal of Computer-Mediated Communication, 25*(1), 89–100.
- Jakobson, R. (1960). Closing statement: Linguistics and poetics. In T. A. Sebeok (Ed.), *Style in language* (pp. 350–377). MIT Press.
- Manovich, L. (2001). *The language of new media*. MIT Press.
- Newcomb, T. M. (1953). An approach to the study of communicative acts. *Psychological Review, 60*(6), 393–404.
- Schramm, W. (Ed.). (1954). *The process and effects of mass communication*. University of Illinois Press.
- Shannon, C. E., & Weaver, W. (1949). *The mathematical theory of communication*. University of Illinois Press.